الألف كتاب (الثانى) ٦٨

مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى حتى مجىء الحملة الفرنسية

د. عاصم محمد رزق عبد الرحمن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب (الثانى)

٦٨

مراكز الصناعة في مصر الإسلامية

من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعي المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

مراكز الصناعة في مصر الإسلامية

من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية

د. عاصم محمد رزق عبد الرحمن

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

الزجاج فى مصر كانت من الصناعات التى مورست منذ العصر الفرعونى وظلت مستمرة فى العصرين اليونانى والرومانى ومن ثم فى العصرين البيزنطى والاسلامى ، ولما كانت أتريب منذ القدم (طبقا لما أشارت اليه المصادر والمراجع السالفة الذكر) واحدة من كور الوجه البحرى ومدينة من مدائنه العظيمة فاننا لانستبعد قيام هذه الصناعة وغيرها من الصناعات التى عرفت عن مثيلاتها من المدائن فى العصر الاسلامى ٠

ثانيا : محافظة الشرقية

كانت كورة الشرقية فى العصر الاسلامى من أكثر كور مصر السفلى ازدهارا من الناحية الصناعية فقد مورست الصناعات فيها خلال هذا العصر فى أربعة مراكز هامة هى تنيس وتونه وبلبيس والفرما ٠

١ ـ تنيس :

لم تحظ مدينة اسلامية مما كتبه المؤرخون والرحالة مثلما حظيت تنيس ، فأفاض علينا هؤلاء وأولئك من المعلومات التاريخية والجغرافية والصناعية والحرفية ما جعل معرفتنا عن هذه المدينة أوفى المعرفة على الاطلاق ، وقد توالت هذه المعلومات منذ القرن (٣ هـ /٩ م) وظلت تتوالى حتى بعد أن خربت المدينة بأمر من الملك الكامل محمد فى القرن (٧ هـ / ١٣ م) بل والى القرن (١٠ هـ / ١٦ م) وما بعده وقد أشارت معظم المصادر العربية الى موقع تنيس وفصلت فيه كثيرا ، من ذلك مثلا ما ذكره البلاذرى فى القرن (٣ هـ /٩ م) بقوله انها « جزيرة قريبة من البحر فى مصر بين الفرما ودمياط فى بحيرة المنزلة » (٦٠٣) ومنه أيضا ما ذكره فى القرن (٤ هـ /١٠ م) كل من الاصطخرى والمسعودى وابن حوقل فقال الأول فى سياق حديثه عن بحيرة تنيس ان فيها « مدنا مثل الجزائر تطيف البحيرة بها فلا طريق اليها الا فى السفن ، ومن مشاهير تلك المدن تنيس ودمياط وهما مدينتان لا زرع بهما ولا ضرع » (٦٠٤) وقال الثانى بنقيض ما ذكره الأول انها كانت « أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة ٠٠ وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع ، ولم يكن بمصر كورة يقال أنها تشبهها الا الفيوم » (٦٠٥) وقال الثالث مؤيدا الثانى « ومن الفرما الى تنيس فى البحيرة دون الثلاثة فراسخ (الفرسخ ثلاثة أرباع الميل) وهى مدينة كثيرة الرطب جيدة صالحة الفاكهة كثيرتها » (٦٠٦) ومنه ما أشار اليه المسبحى فى القرن (٥ هـ / ١١ م) من أنه فى مستهل جمادى الآخرة سنة (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) خلع على أبى الفرج بن مالك بن سعيد ثوبا وعمامة مذهبان ، وحمل على بغلة بسرج ولجام ، وقلد قضاء تنيس وسار اليها » (٦٠٧) وأنه فى مستهل

المحرم سنة (٤٤٩ هـ /١٠٥٧ م) قبض المنصور على وزيره الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري وسيره (منفيا) الى تنيس هو ونساءه وأولاده وحاشيته وظل معتقلا بها حتى الثاني والعشرين من صفر حيث أخرج ليلا وضربت رقبته في سفل دار الامارة بها (٦٠٨) ، والواقع أن ما أشار اليه المسبحى مما كان لتنيس من قضـاء ودار امارة يوضح لنا كثيرا الأهمية التى كانت عليها هذه المدينة على عهد الدولة الفاطمية فى مصر ، وهو أمر لا غرابة فيه اذا ما قيس بدورها الصناعى الذى مارسته فى مجال صناعة النسيج بالذات على عهد هذه الدولة ٠

أما ناصر خسرو الذى زار مصر فى القرن (٥ هـ /١١ م) أيضا فقد وصف تنيس من واقع مشاهدته الشخصية فقال فى موضع من هذا الوصف انها « جزيرة مزدحمة ذات أسواق عديدة وفيها مسجدان وما يقرب من عشرة آلاف حانوت » (٦٠٩) وأشار فى موضع آخر الى « أنه سمع أن أحد سلاطين رومية كان قد بعث رسولا الى سلطان مصر طالبا منه أن يعطيه مدينة تنيس مقابل مائة مدينة من مدن الروم ولكنه أبى ذلك ، وكان الذى أغرى سلطان رومية بهذا الطلب الغريب هو اعجابه بمنسوجات مدينة تنيس وخاصة نسيجها الطاووسى (٦١٠) ، ثم أضاف الى ذلك فى موضع ثالث أن الخزانة السلطانية كانت ترسل كل تكاليف النسيج الخاص بالسلطان ولا تظلم أحدا حقه وأن ذلك بعكس ما رأى فى أماكن أخرى من العسف والظلم والطغيان من قبل مأمير السلطنة (٦١١) ٠٠

كذلك فقد فصل ياقوت فى القرنين (٦ ـ ٩هـ /١٢ ـ ١٣ م) من أمر تنيس كثيرا حيث قال بأنها جزيرة فى بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط وزاد معرفتنا عن سورها وتسميتها بقوله أنه قرأ فى بعض التواريخ أن سور تنيس ابتدىء فى بنيانه فى شهر ربيع الأول سنة « ٢٣٠ هـ / ديسمبر ٨٤٤ م) وكان والى مصر يومئذ عيسى بن منصور الخراسانى فى أيام الواثق بن المعتصم وفرغ منه فى سنة (٢٣٩ هـ / ٩٠٥ م) فى ولاية عنبسة بن اسحاق فى أيام المتوكل وسميت تنيس باسم بنت دلوكة الملكة وهى العجوز صاحبة حائط العجوز بمصر ٠٠ وكانت ذات حدائق وبساتين ٠٠ ولما فتحت مصر سنة (٢٠ هـ /٦٤٠ م). كانت تنيس حينئذ خصاصنا من قصب (٦١٢) ٠

وجاء القزوينى فى القرنين (٧ ـ ٨ هـ /١٣ ـ ١٤ م) فقال انها جزيرة بين الفرما ودمياط فى وسط بحيرة منفردة عن البحر الأعظم ٠٠ بينها وبينه بر مستطيل أوله قرب الفرما ٠٠ والبحيرة مقدار ابلاغ يوم فى عرض نصف يوم ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول ماء البحر اليه عند

هبوب الشمال ، فاذا انصرف النيل عند دخول الشتاء وهبوب الرياح الغربية خلت البحيرة وخلا سيف البحر الملح (٦١٣) •

أما المقريزى فقد أثرى معرفتنا عن تنيس فى القرنين (٨ ـ ٩ هـ / ١٤ ـ ١٥ م) بقوله انها بلدة من بلاد مصر فى وسط الماء وهى من كورة الخليج سميت بتنيس بن حام بن نوح ويقال بناها قليمون من ولد أتريب بن قبطيم أحد ملوك القبط فى القديم ويقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى فى كتابه العزيز بقوله « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » (٦١٤) ، كانت لأخوين من بيت الملك (قليمون) أقطعهما ذلك الموضع (٦١٥) •

وجاء ابن دقماق فى القرن (٩ هـ /١٥ م) وأشار الى تنيس فقال انها مدينة قديمة سميت باسم تنيس بن حام بن نوح وقيل تنيس أخو دمياط وهى كورة الريف (٦١٦) ، وهنا نجد اختلافا بين ما ذكره ياقوت فى القرنين (٦ ـ ٧ هـ /١٢ ـ ١٣ م) من جهة ، وبين ما ذكره كل من المقريزى وابن دقماق فى القرنين (٨ ـ ٩ هـ/١٤ ـ ١٥ م) من جهة أخرى ، لأن الأول نسب تسميتها الى تنيس بنت دلوكة صاحبة حائط العجوز ، بينما نسبها الآخران الى تنيس بن حام بن نوح ، الا أن تردد كل منهما فى الاستدراك على ما اتفقا عليه ممثلا فى استدراك الأول على تنيس بن حام بقليمون بن أتريب ، واستدراك الثانى عليه بتنيس أخو دمياط ، جعلنا فى حيرة من القطع برأى فى هذا الصدد ، وهو أمر لا يعنينا على كل حال فى المقام الأول اذا ماقيس بالهدف الحقيقى لهذه الدراسة ، وفى حاشية على ما ذكره ابن تغرى بردى فى نفس القرن المشار اليه قيل انها « مدينة قديمة كانت قائمة فى جزيرة صغيرة شمال شرق بحيرة المنزلة » (٦١٧) وفى حاشية أخرى على ما ذكره ابن ظهـيرة فى القرن (١٠ هـ /١٦ م) عرفت تنيس بأنها « بليدة من بلاد مصر فى وسط الماء وهى كورة الخليج » (٦١٨) وجزيرة فى بحر مصر قريبة من البر بين الفرما ودمياط والفرما فى شرقيها (٦١٩) •

وظلت تنيس قائمة عامرة عاملة حتى توالت عليها هجمات متكررة من الفرنج استهدفت الاستيلاء عليهـا وتخريبها ، مثلمـا حـدث سنة (٥٧١ هـ /١١٧٥ م) عندما أغاروا عليهـا بأربعين سفينة حربية من شوانى صقلية وحاصروها يومين واقلعوا ، وما حدث سنة (٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م) عندما هاجموها بأربعين سفينة أخرى وقاتلوا أهلهاحتى دخلوها والقوا فيهـا النار ثم رحلوا عنها وقـد امتلأت أيديهم ـ طبقا لما ذكره المقريزى ـ بالغنائم والأسرى ، وما حدث سنة (٥٧٧ هـ /١١٨١ م)

عندما طرقوا ساحلها وأخذوا مركبا للتجار منها (٦٢١) ، وكان من نتيجة هذه الهجمات أن كتب باخلاء تنيس سنة (٥٨٨ هـ /١١٩٢ م) ونقل أهلها الى دمياط فاخليت فى صفر من الذرارى والأثقال ولم يبق بها سوى المقاتلة فى قلعتها ، وفى شوال سنة (٦٢٤ هـ /١٢٢٦ م) أمر الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بهدم مدينة تنيس فاستمرت (منذ ذلك التاريخ) خرابا ولم يبق منها الا رسومها فى وسط البحيرة (٦٢٢) ، ثم هجم الماء من البحر بعد ذلك على بعض المواقع ببحيرة تنيس فأغرق ما كان في قرارها من القرى وأبقى ما كان منها على ارتفاع من الأرض مثل تونة وبورة وغير ذلك (٦٢٣) .

والى جانب الوفرة الهائلة من المعلومات المسجلة التى حظيت بها مدينة تنيس فى المصادر العربية ، فانهـا قد حظيت بوفرة مماثلة فى المراجع الحديثة حيث أسهبت هذه المراجع كثيرا فى الحديث عن الجزيرة تاريخا وموقعا ، من ذلك مثلا ما ذكره صاحب القاموس الجغرافى بقوله انها « من المدن القديمة التى اندثرت ، وكانت جزيرة يحيط بها البحر من جميع الجهات ، ولا تزال آثارها موجودة الى اليوم ببحيرة المنزلة فى الجنوب الغربى لمدينة بورسعيد على بعد تسعة كيلو مترات منها » (٦٢٤) .

كذلك فقد فصل بتلر فى تاريخ المدينة كثيرا وقال انها كانت على جزيرة فسيحة تصل اليها من الجنوب ترعة بحر الروم التى كانت على ما يبدو بقية فرع النيل التنيسى الذى كان يبلغ الصالحية ، وكان الاتصال عن طريق الماء بينها وبين الفرما أى على الأدل بينها وبين الطينة وهى ثغر الفرما على ساحل البحر سهلا وميسورا ، ثم أشار الى أن المدينة كانت تحتفظ حتى القرن (١٠ هـ /١٦ م) ببعض الآثار القديمة سوى ما كان بها من المساجد ذات المآذن العالية وعدتها مائة وستون مسجدا ، وما كان بها من الكنائس وعدتها اثنتان وسبعون كنيسة (٦٢٥) .

أما كتاب وصف مصر فقد جاء فيه أن تنيس كانت مدينة بالغة الاتساع يحيط بها سور تعلوه أبراج وحصون ، وبه آبار تمتلىء بالمياه ، وأنه لم يبق من هذه المدينة على عهد الحملة الفرنسية الا أنقاض حمامات وأطلال بعض القباب المبنية بحذق بالغ والمغطاة جدرانها بطبقة ملاطية صلبة ، بالاضافة الى أنقاض كهف مستطيل من الجرانيت الأحمر (٦٢٦) .

هذا عن موقع وتاريخ مدينة تنيس كما جاء فى المصادر والمراجع العربية ، أما عن تنيس كمركز صناعى فالذى لا شك فيه أنها كانت من أبرز مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية شهرة على الاطلاق ، وقـد

ساعدها على ذلك عوامل شتى منها أن المدينة كانت موطنا لكثير من الصناع المهرة من الأقباط ، وأنها كانت تقع بين حقول القطن والكتان الخصبة المنتشرة فى الوجه البحرى مما مكنها من الحصول على المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة فى سهولة ويسر ، ومنها أن بحيرتها الشهيرة كانت عونا لها ليس فقط فى الحصول السهل على المواد الخام بل أيضا فى التسويق الأسهل لما كانت تنتجه من منسوجات فى الأقاليم الأخرى (٦٢٧) ، يضاف الى ذلك كله أن صناع النسيج فى تنيس لم يحصلوا على الأجور العالية لقاء ما كانوا ينتجون من منسوجات بالغة الجودة فى طراز الخاصة فقط ، بل كانوا يشجعون تشجيعا كبيرا فى هذا الصدد ، يدل على ذلك ما ذكره ناصر خسرو حين قال « انه سمع أن واحدا من الصناع فى طراز الخاصة بتنيس صنع عمامة للسلطان كانت من الجودة لدرجة أنه أمر له بمبلغ خمسمائة دينار مكافأة له ، وأضاف أنه رأى هذه العمامة وقيل له ان ثمنها كان يوازى أربعمائة دينار » (٦٢٨) ورغم أننا لسنا فى حاجة الى تحقيق هذه القصة فانه من الممكن القول انها تعكس على الأقل حقيقة أن صناع تنيس كانوا يكافأون على مهارتهم واجادتهم من السلاطين أنفسهم، والواقع أنه قد مورست فى تنيس أنشطة حرفية وصناعية شتى انحصرت فى صناعات النسيج والزجاج والمعادن والفخار والخزف ، بالاضافة الى بعض الصناعات التى اعتمدت على الانتاج الزراعى مثل طحن الغلال والزيوت والفقاع والأدوية ونحو ذلك .

١ ـ صناعة النسيج :

سجلت لنا المصادر العربية كثيرا من المعلومات التاريخية عن صناعة النسيج فى تنيس منذ العصر العباسى فى القرن (٣ هـ /٩ م) وحتى العصر المملوكى فى القرن (٩ هـ /١٥ م) ، فقد جاء فيما ذكره اليعقوبى فى القرن (٣ هـ /٩ م) أنه تعمل بتنيس الثياب الرفيعة الصفاق والرقاق من القصب والبرد والمخمل والوشى وأصناف الثياب (٦٢٩) ، وفيما ذكره فى القرن (٤ هـ /١٠ م) كل من الاصطخرى وابن حوقل حيث قال الأول « وبها يتخذ المرتفع من ثياب مصر » (٦٣٠) وقال الثانى فى جزء من حديثه انه « يعمل بها رفيع الكتان وثياب الشرب والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والرقة والدقة وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتى دينار اذا كان فيها ذهب وقد بلغ مالا ذهب فيه منها مائة دينار » (٦٣١) وقال فى جزء آخر ان الحمل من ثيابها المصدر الى العراق كان يبلغ على عهده من عشرين ألف الى ثلاثين ألف دينار الى أن انقطع ذلك التصدير بالمغاربة واختص بقطعه أبو الفرج بن كلس وزير العزيز الفاطمى الذى استأصله على حد

قول ابن حوقل بالنوائب والكلف والمغارم والسخر الدائمة للصناع ، حتى انه جعل جزية على جميع الداخلين والخارجين الى تنيس (٦٣٢) ، كذلك فقد أشار الكندى فى النصف الثانى من القرن (٤ هـ /١٠ م) الى أنه « ليس فى الدنيا طراز يبلغ الثوب الساذج منه (الذى لا ذهب فيه) مائة دينار الا ثوب تنيس ودمياط ويقال انه ليس فى الدنيا منزل الا وفيه من ثوب تنيس ولو خرقة » (٦٣٣) ، وفى فترة معاصرة للكندى تقريبا قال المقدسى « ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة التى كانت تصدر لكثير من بلدان العالم فى الشرق والغرب » (٦٣٤) ٠

أما ناصر خسرو الذى زار مصر فى القرن (٥ هـ /١١ م) فقد قال فى موضع من حديثه انه رأى « فى أسواق تنيس عمائم تنسج من القصب وعصائب كثيرة كانت النسوة تستعملنه على رؤوسهن وأنه لم يجد مثل هذه العمائم المقصبة ذات الألوان البهيجة فى أى مكان غير تنيس » (٦٣٥)، وأضاف الى ذلك أن « فى المدينة دور للنسيج السلطانى لا يباع منها لأحد من الناس لأنها من جملة الخاصة السلطانية ، حتى أن حد ملوك فارس أرسل عشرين ألف دينار لشراء واحدة من هذه الثياب (السلطانية) وظل رسله فى تنيس يحاولون ذلك دون طائل » (٦٣٦) ٠ ثم أشار فى موضع ثالث الى أنهم « ينسجون فى تنيس نسجا يعرف بالطاووسى (البوقلمون) وهو نسيج تتخلله خيوط ذهبية تتلون خلال النهار (فى ضوء الشمس) بألوان مختلفة زاهية ، ويحمل هذا النسيج الطاووسى الذى لا نظير له من تنيس الى مختلف أنحاء المعمورة على أنه من أندر التحف (٦٣٧) ، ليس هذا فقط بل انه أشار فى موضع رابع الى أنه رأى فى المناسج التابعة لخاصة السلطان « فى تنيس مصانع متخصصة فى نسج أستار هوادج الجمال ولبود سروج الخيل الخاصة بالسلطان ، وأن الغالب فى ذلك النسيج هو الخيوط المستعملة فى النسيج الطاووسى »(٦٣٨)، ولم يكن غريبا على مصانع تنيس انتاج كل هذه الأنواع الفاخرة العالية الجودة وهى التى اشتهرت بحذاق النساجين الذين لا مثيل لهم فى أى مكان فى العالم طبقا لما ذكره ناصر خسرو فيما سبقت الاشارة اليه من أن صانعا بهذه المدينة نسج عمامة للسلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهبى مغربى رغم أن قيمة هذه العمامة لم تكن تزيد فى نظره عن ألفى دينار ذهبى مغربى (٦٣٩) ٠

أما الادريسى فى القرنين (٥ ـ ٦ هـ /١١ ـ ١٢ م) فقد قال « وبمدينة تنيس ودمياط يتخذ رفيع الثياب من الدبيقى والشروب والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة وربما بلغ الثوب من ثيابها اذا كان مذهبا ألف دينار

ونحو ذلك وما لم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه وأصولهـــا من الكتان » (٦٤٠) ، ثم جاء ياقوت وابن مماتى والقزوينى فيما بين القرنين (٦ ـ ٨ هـ /١٢ ـ ١٤ م) فقال أولهم « أنه تعمل بها الثياب الملونة والفرش البوقلمون » (٦٤١) وأكد ثانيهم ما ذكره ابن حوقل فى القرن (٤ هـ /١٠ م) من أنه « ليس فى الدنيا طراز يبلغ الثوب منه مائة دينار ولا ذهب فيه غير برد تنيس الذى يطرز بخيوط القصب » (٦٤٢) وأشار ثالثهم الى أنه « يجلب منها الثياب النفيسة الملونة والفرش الحسن وثياب البوقلمون » (٦٤٣) ٠

كذلك فقد ذكر المقريزى فى القرنين (٨ ـ ٩ هـ /١٤ ـ ١٥ م) أن أهل تنيس مياسير أصحاب ثراء وأكثرهم حاكة ، وبها تحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، وأكد ما ذكره ناصر خسرو من أنه يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة تبلغ قيمته ألف دينار ، وأنه ليس فى الدنيار طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو ساذج (بغير ذهب) مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط » (٦٤٤) وأشار بعد ذلك كله نقلا عن الفاكهى الى أن الكعبة كسيت على عهد المهدى من طراز تنيس وكان نص ما كتب على هذه الكسوة بعد البسملة واسم الخليفة « ٠٠ مما أمر به اسماعيــل ابن ابراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يد الحاكم بن عبيدة سنة اثنتين وستين ومائة » (٦٤٥) ٠

كذلك فقد ذكر ابن دقمـاق فى القرن (٩ هـ /١٥ م) نقــلا عن الادريسى أنه « يتخذ بمدينتى تنيس ودمياط رفيع الثياب من الشرب والمقصبات التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة وربما بلغ الثوب الواحد من ثيابها اذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك وما لم يكن فيه ذهب يساوى المائة دينـار والمائتين ونحوهـا وأصولهـا من الكتان » (٦٤٦) ٠

أما السيوطى وابن ظهيرة فى القرن (١٠ هـ /١٦ م) فقد أشار كل منهما أيضا الى منسوجات تنيس فقال الأول « ويجلب من مصر البز الأبيض من الدبيقى وغيره الذى يعمل بدمياط وتنيس والاسكندرية»(٦٤٧)، وقال الثانى فى فصل كور مصر المشهورة أن منها تنيس « وبها ثيـاب الكتان الدبيقى والمقصور والشفاف والاردية وأصناف المناديل والمناشف الفاخرة للابدان والأرجل والمخاد والفرش القلمونى والمطرز ويبلغ الثوب

المقصور منها خمسمائة دينار ولا يعلم في بلد ثوب يبلغ مئتى دينار فما فوقها وليس فيه ذهب الا بمصر » (٦٤٨) .

ومما أشارت اليه المصادر العربية عن منسوجات تنيس اعتبارا من القرن (٣ هـ /٩ م) وحتى القرن (١٠ هـ /١٦ م) يتضح لنا أن دور الطراز بالمدينة انتجت القصب وهو نسيج رقيق جدا من الكتان كان يعمل للعمائم منذ القرن (٣ هـ /٩م) طبقا لما أشار اليه اليعقوبى ، وأن هذا النوع من النسيج ظل يعمل فيها خلال القرن (٥ هـ / ١١ م) طبقا لما أشار اليه ناصر خسرو وحتى القرن (٩ هـ /١٥ م) طبقا لما أشار اليه ابن دقماق .

كما أنتجت هذه الدور ثياب الشرب وهى نوع رقيق من الحرير أو الكتان الفاخر اعتبارا من القرن (٤ هـ / ١٠ م) طبقا لما أشار اليه ابن حوقل ، وأن هذه المنسوجات ظلت تعمل فيها خلال القرنين (٨ ـ ٩ هـ / ١٤ ـ ١٥ م) طبقا لما أشار اليه كل من المقريزى وابن دقماق ، وانتجت البدنة السلطانية التى أشار اليها كل من ناصر خسرو والمقريزى فيما سبق ذكره ، والتى كانت تعمل من خيوط الذهب ولا يدخل فيها من نسيج الكتان الا قدر أوقيتين .

بالاضافة الى القصب والشروب والبدنة انتجت دور الطراز فى تنيس البرد (وهى ثياب الكتان الرفيع) اعتبارا من القرن (٣ هـ / ٩ م) طبقا لما أشار اليه اليعقوبى ، وظلت هذه البرد تنتج فيها خلال القرن (٤ هـ / ١٠ م) طبقا لما أشار اليه ابن حوقل وحتى القرن (١٠ هـ / ١٦ م) طبقا لما أشار اليه ابن ظهيرة ، وكان من هذه البرد على ما يبدو المعلم والمطرز .

كذلك فقد انتجت هذه الدور نسيج المخمل من الفرش وهو نوع من الأقمشة الوبرية اعتبارا من القرن (٣ هـ /٩ م) طبقا لما أشار اليه اليعقوبى ، وأن هذه المنسوجات ذات الخمل أو ذات الوبر ظلت تنتج فى المدينة خلال القرن (٥ هـ /١١ م) طبقا لما أشار اليه ناصر خسرو ، وخلال القرن (٨ هـ /١٤ م) طبقا لما أشار اليه القزوينى ، وحتى القرن (١٠ هـ /١٦ م) طبقا لما أشار اليه ابن ظهيرة .

كذلك فقد أنتجت مصانع النسيج فى تنيس بالاضافة الى القصب والشرب والبدنة والبرد والمخمل والوشى ، الثياب المصبوغة اعتبارا من القرن (٤ هـ /١٠ م) طبقا لما أشار اليه كل من ابن حوقل والمقدسى ، وان هذه الثياب ظلت تعمل فى المدينة خلال القرن (٨ هـ/١٤ م) طبقا

لما أشار اليه القزويني ، وحتى القرن (١٠ هـ /١٦ م) طبقا لما أشار اليه ابن ظهيرة الذى أوضح بأنه تعمل فيها المناديل والمناشف والمخاد ونحوها .

أما البز الأبيض فلم يشر الى انتاجه فى تنيس غير السيوطى فى القرن (١٠ هـ /١٦ م) رغم أن كل المصادر العربية قد اتفقت « على أنه ليس فى دمياط ملون ولا فى تنيس أبيض » وهذا معناه أن دمياط اختصت دون تنيس بانتاج الأقمشة البيضاء كما اختصت تنيس دون دمياط بانتاج الأقمشة الملونة التى بلغت القمة وامتياز الجودة وحسن الذوق حتى أن كسوة الكعبة كانت تصنع منها .

أما ما جاء عن منسوجات تنيس فى المراجع العربية فهو كثير أيضا ومنه ما يتحدث عن هذه المنسوجات فى العصر الاسلامى بصفة عامة ، ومنه ما يتحدث عنها فى عصورها التاريخية المتعاقبة بدءا من العصر البيزنطى وحتى العصر المملوكى .

وقد أشارت المراجع التى تحدثت عن منسوجات تنيس فى العصر الاسلامى بصفة عامة الى أن المدينة كانت واحدة من أبرز مراكز صناعة النسيج فى مصر ، تحاك فيها المنسوجات الكتانية الرفيعة التى عرفت فى المصادر العربية باسم الثياب الشروب (٦٤٩) ، وكذا المنسوجات الحريرية والقطنية والقصب الملون والبوقلمون الذى قيل انه كان ينسج فى بلاد اليونان ثم نقلت صناعته الى مصر فصار يعمل فى تنيس وغيره (٦٥٠) ، وذكر بتلر أن ثوبا صنع للخليفة فى تنيس من عرض واحد ثمنه ألف دينار من خيوط الذهب المخلوطة باليسير من دقيق الكتان (٦٥١) ، وهو يقصد بذلك بدنة الخليفة التى أشار اليها المقريزى وقال انه لم يكن يدخل فى نسجها سداة ولحمه غير أوقيتين من الخيوط الكتانية وينسج باقيها بخيوط الذهب ، ولم يكن يسمح بعملها الا فى تنيس رغم ما أخطأته بعض المراجع التى عرفت هذه البدنة على أنها « نوع من النسيج كانت تصنع منه كسوة السروج وأغطية المحاف الملكية (٦٥٢) .

وأشار صاحب كتاب الكعبة والكسوة الى أن خلفاء بنى العباس كانوا قد « بحثوا عن خير من يحسنون صناعة النسيج والحياكة فوجدوا تنيس المدينة المصرية التى اشتهرت فى المنسوجات الثمينة الرائعة شهرة عظيمة فوقع اختيارهم عليها وصنعوا بها الكسوة الفاخرة من الحرير الاسود على أيدى أمهر الحاكة والنساجين » (٦٥٣) ، وكذلك فقد أشارت بعض هذه المراجع الى ما ذكره ناصر خسرو من قبل من أن تنيس كانت تشتمل على خمسة آلاف نول (٦٥٤) ، وفى الدراسة التى أعدها مسيو أندريوس عن

المنزلة على عهد الحملة الفرنسية على مصر أشير الى أنه كان يوجد بالمنزلة مصانع للأقمشة الحريرية وأقمشة القلوع وبعض المصابغ (٦٥٥) ، وفى هذا ما يشير صراحة الى أن بعضا مما كان ينسج فى تنيس خلال تاريخها المبكر كان لا يزال ينسج فيها حتى عهد الحملة الفرنسية ٠

أما المراجع التى تحدثت عن منسوجات تنيس بترتيب تاريخى فمنها ما أورد المدينة على أنها كانت مركزا من مراكز صناعة المنسوجات الكتانية ذات الجودة العالية خلال العصر البيزنطى ، وأرجعت ذلك الى أن الفن القبطى بصفة عامة كان فنا شعبيا لا يخضع لرقابة الحكومة وقيودها ومن ثم فقد انتشرت مصانع نسجه فى طول البلاد وعرضها وكانت تنيس احدى هذه البلاد خاصة وأنها كانت من البلدان التى سكنها الأقباط (٦٥٦) ، يدل على ذلك ما ذكره آدم متز من أن أجرة النساج اليومية فى أوائل القرن (٣ هـ / ٩ م) كانت لا تتعدى نصف درهم وهو سبب شكاية أهل تنيس للبطريرك ديونيسيوس التلمخرى عندما مر ببلدهم فى ذلك العصر (٦٥٧) ٠

أما فى العصر الاسلامى فقد أشارت بعض هذه المراجع الى أن القطن والكتان كانا ينسجان فى تنيس خلال عصر الاخشيديين (٦٥٨) ، يؤيد ذلك ما ذكره م ٠ س ٠ ديماند من أنه وجدت بسامرا قطعة نسيج كتانية ترجع الى القرن (٣ هـ /٩ م) عليها كتابة مطرزة بالحرير الأحمر تقول انها صنعت بمدينة تنيس (٦٥٩) ، وأوردت بعض المراجع الأخرى أن تنيس كانت فى العصر الفاطمى أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر شهرة على الاطلاق ، يدل على ذلك ما كان يصنع فيها من البدنة السلطانية وكسوة الكعبة والقصب الملون ونحوه مما سبقت الاشارة اليه ، ويدل عليه أيضا ما ورد من أن الضرائب التى كانت تحصل منها خلال هذا العصر كانت تبلغ ألف دينار في اليوم الواحد ، وأن وظيفة صاحب الطراز خلاله كان لا يتولاها الا أحد كبار المقربين (٦٦٠) ، أما فى العصرين الأيوبى والمملوكى فقد ذكرت بعض المراجع الأخرى أن المنسوجات الحريرية والكتانية الملونة كانت تصنع فى تنيس خلال عصر الأيوبيين ، وأن هذه المنسوجات كانت تصدر الى أوربا وآسيا ولا سيما المنسوجات الحريرية الموشاة بخيوط الذهب (٦٦١) ، ويبدو أن انتاج هذه الأنواع من المنسوجات كان قد استمر فى تنيس وما جاورها من المدن خلال العصر المملوكى فصنعت فيها المنسوجات الحريرية التى كانت تتمتع بخصائص فنية عالية حتى أنها عرفت بالحرير التنيسى (٦٦٢) ٠

وبعد هذا العرض لما لدينا من معلومات عن مدينة تنيس من الناحيتين التاريخية والصناعية النسيجية ، وهى المعلومات التى استقيناها من

كثير من المصادر والمراجع العربية فان ما بين أيدينا من أدلة مادية ثابتة مما أنتجته دور الطراز فى تنيس ممثلة فى قطع النسيج التى لا زالت محفوظة فى كثير من المتاحف المحلية والخارجية ، وكذا فى كثير من المجموعات الأثرية الخاصة ، يجعل مما ورد فى المصادر والمراجع عن صناعة النسيج فى تنيس أمر لا ريب فيه ولا خلاف عليه ·

ويأتى فى مقدمة هذه المتاحف بطبيعة الحال متحف الفن الاسلامى بالقاهرة الذى يحتفظ بخمس قطع كتانية من منسوجات تنيس تنحصر تواريخها بين سنتى (٢٧٨ هـ/٨٩١ م) ، (٤١٢ هـ/١٠٢١ م) وعلى هذه القطع الخمس كتابات كوفية بسيطة فى سطر أو سطرين تثبت أنها صنعت فى هذه المدينة ، أولاها وثانيتها قطعتان باسم المعتمد على الله العباسى وامارة خمارويه بن أحمد بن طولون تقول كتابات الأولى انها صنعت فى « طراز تنيس (ولم تحدد) على يد محمد بن خلف سنة ثمان وسبعين ومائتين » (٦٦٣) وتقول كتابات الثانية انها صنعت فى « طراز العامة بتنيس على يد ···· (ولم تكمل) (٦٦٤) وثالثتها باسم المعتضد بالله العباسى وامارة أبى موسى هارون بن خمارويه وتقول كتاباتها انها عملت فى « طراز تنيس (ولم تحدد) على يد محمد بن خلف سنة سبعة وثمنين ومائتين (٦٦٥) (sic) (انظر شكل : ٨١) ورابعتها باسم المكتفى بالله العباسى وامارة العباس بن الحسن وتقول كتاباتها انها « عملت فى طراز العامة بتنيس سنة ثلث وتسعين ومائتين (انظر شكل ٨٢) » (٦٦٦) ، وخامستها باسم الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمى وتقول كتابتها انها « عملت فى طراز العامة بتنيس سنة اثنى عشر وأربعمائة » (٦٦٧) ·

وفى متحف بناكى فى أثينا قطعتان أخريان من منسوجات تنيس باسم المقتدر بالله العباسى أولاهما بامارة على بن عيسى وتقول كتاباتها انها « صنعت فى طراز الخاصة بتنيس على يد شفيع مولى أمير المؤمنين سنة أربعة وثلثمئة » (٦٦٨) ، وثانيتها بوزارة حامد بن العباس وتقول كتاباتها أنها « صنعت فى طراز العامة بتنيس سنة ثمان وثلثمئة » (٦٦٩) · وفي متحف برلين قطعة أخرى من نسيج تنيس باسم المعتمد على الله العباسى وتقول كتاباتها « مما عمل بتنيس (ولم تحدد) على يدى بدر مولى أمير المؤمنين » (٦٧٠) ·

أما بقايا منسوجات تنيس فى المجموعات الخاصة فمنها قطعتان فى مجموعة أبيمايور (Abemayor) أولاهما باسم المعتضد بالله العباسى وامارة هارون بن خمارويه تقول كتاباتها انها « صنعت فى طراز تنيس (ولم تحدد) على يــدى عبيد الله بن سـليمان سـنة ثمنـة وثمنين

ومائتين » (٦٧١) (Sic) وثانيتهما قطعتان باسم الحاكم بأمر الله الفاطمى تقول كتاباتهـا انهـا عملت فى طراز العـــامة بتنيس ســـنة عشر وأربعمائة (٦٧٢) .

ومنها أيضـــا قطعتان فى مجموعة تانو (Tono) أولاهما باسم المعتضد بالله العباسى وامارة هارون بن خمـارويه تقول كتاباتها أنهـا « عملت فى طراز تنيس (ولم تحدد) على يدى عمر بن شاهين سنة خمس وثمانين ومائتين » (٦٧٣) وثانيتهما باسم العزيز بالله الفاطمى وتقـول كتاباتها انها « عملت فى طراز الخاصة بتنيس ســنة ثمـان وسبعين وثلثمائة » (٦٧٤) .

ومنها كذلك قطعتان غير محددتى المكان باسم المهدى تقول كتابات الأولى انها « صنعت فى طراز تنيس (ولم تحدد) كسوة الكعبة على يدى الخطاب بن مسلمة سنة تسع وخمسين ومائة »(٦٧٥) ، وتقول كتابات الثانية أنها « عملت فى طراز تنيس على يدى الحكم بين عبيدة سنة اثنين وستين ومائة » (٦٧٦) .

والواقع أنه رغم كثرة عدد القطع المنسوبة الى المركز الواحد الا أنه يمكن الاستفادة منها فى جوانب عدة ، منها معرفة أسماء الخلفاء والسلاطين الذين عملت لهم هذه المراكز ، ومعرفة أسماء المشرفين على دور الطراز من الأمراء والوزراء ، وأسماء النساج الذين قاموا بعمل هذه القطع الفاخرة من النسيج ، وفوق هذا وذاك معرفة تواريخ استمرارية العمل فى هذه المراكز الصناعية أو على الأقل تواريخ ازدهارها ومرحلة الغزارة فى انتاجها .

٢ ـ صناعات أخرى غير النسيج فى تنيس :

قلنا ان صناعات تنيس لم تقتصر على صناعة النسيج فقط ، وانما شملت بعضـــا من الصناعات الأخرى مثل صناعات الزجاج والمعـادن والفخار ، بالاضافة الى بعض الصناعات التى كانت تعتمـد على المنتجات الزراعية ، ومع أنه ليست لدينا معلومات وافرة عن هذه الصناعات بالقدر الذى كانت عليه معلوماتنا عن صناعة النسيج ، فاننا سنحاول فيما يلى أن نضىء الطريق بقدر ما أتاحته لنا هذه المعلومات فى مجال كل صناعة من تلك الصناعات .

(أ) صناعة الزجاج :

ان ما لدينا من معلومات عن صناعة الزجاج فى تنيس جاء فى واحد من المصادر العربية وفى مرجعين من المراجع الحديثة ، فيقول المقريزى فى

القرن (٩ هـ /١٥ م) فى معرض حديثه عن قرية من قرى تنيس يقال لها سمناى « أن قوما كشفوا فيهـا سـنة (٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م) عن غضارات كثيرة من الزجاج مكتوب على بعضها اسم المعز وعلى بعضها اسم العزيز وعلى بعضها اسم الحاكم والظاهر والمستنصر وهو أكثرها » (٦٧٧) .

أما عن المرجعين فأولهما ما تركه علماء الحملة الفرنسية فى وصف تنيس بما معناه « أن أطلال المدينة يميزها المرء وسط أنقاض واسعة من الطوب الأحمر والخزف والفخار والقطع الزجاجية من كل لون » (٦٧٨) وثانيهما ما أشار اليه على باشا مبارك من أنه لا يوجد بتنيس (على عهده فى القرن (١٣ هـ /١٩ م) الا تلول بها كثير من الطوب والزجاج الملون بكل لون » (٦٧٩) ، وعلى ذلك فاننا لا نستطيع من جانبنا رغم أننا لا نملك أدلة مادية أن نشكك فيما أورده المقريزى وأيده على باشا مبارك وأكده علمـاء الحملة الفرنسية من واقع المشـاهدة العينية للتقطات المدينـة السطحية .

(ب) صناعات المعـادن :

كما انحصرت معلوماتنا عن صناعة الزجاج فى تنيس فى مصدر واحد ومرجعين حديثين انحصرت معلوماتنا عن صناعة المعادن فيها فى مصدر واحد ومرجعين حديثين أيضا ، فيقول ناصر خسرو فى القرن (٥ هـ / ١١ م) فى احدى الترجمتين الحديثتين لرحلته « وفى المدينة حرف حديدية كثيرة كالمقصات والسكاكين والآلات الزراعية المختلفة » (٦٨٠) ، ويقول فى العرض والتحليل الذى كتب عن هذه الرحلة فى تراث الانسانية انه « رأى مقراضا فى مصر صنع فى تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية يفتح اذا رفع مسماره ويقص اذا أنزل » (٦٨١) .

هذا عن المصدر الذى أورد الحديث عن صناعة المعادن فى تنيس أما عن المرجعين فقد جاء فى أولهما أن صناعة السلاح المتخذ من الصلب كانت من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها (٦٨٢) ، وورد فى ثانيهما أن مصر اشتهرت دائما بأنها اقليم زراعى ، لذلك اتخذت صناعات مادتها الخام من الزراعة ، ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور .. أما الصناعات التى تقوم على مواد مسـتوردة من الخـارج فكانت قليلـة كالمصنوعات الحـديدية التى تنتجهـا تنيس ودلاص (٦٨٣) .

(جـ) صناعة الفخار والخزف :

من الغريب أن أحدا ممن تكلموا عن تنيس وصناعاتها فى العصر الاسلامى رغم كثرتهم ــ كما رأينا ــ من القدامى والمحدثين لم يشر الى شيء عن صناعة الفخار والخزف فى المدينة خلال هذا العصر ولا حتى قبله ، ونحن نعرف أن هذه الصناعة على وجه الخصوص كانت من الصناعات التى لا زمت الانسان منذ بواكير عهود استقراره على سطح الأرض ، فكانت لذلك مصدرا من أهم مصادر علماء الآثار فى التعرف على حضارة هذا الانسان ، بل كانت من أهم مقاييسهم التى قاسوا بها ماهية هذه الحضـارة •

وكل ما وصلنا عن هذه الصناعة فى تنيس جاء فى مرجعين اثنين أولهما الدراسة التى أجراها علماء الحملة الفرنسية عن الجزيرة والتى ورد فيها أن « أطلال المدينة » تميز وسط أنقاض واسعة من الطوب الأحمر والفخار والخزف » (٦٨٤) ، وثانيهما ما سجله على باشا مبارك فى خططه بقوله « ولا يوجد بها (أى تنيس) الا تلول بها كثير من الطوب وشقاف من الصينى والفخار » (٦٨٥) ووجود هذه الكسر الفخارية والخزفية على سطح أطلال المدينة انما يعنى فى المصطلح الأثرى أنها كانت من بين ملتقطاتها السطحية ، ومثل هذه الملتقطات لا تترك شكا فى أنها كانت من بين صناعات تنيس خلال الفترة التى نتحدث عنها •

(د) صناعات تعتمد على منتجات زراعية :

انحصرت صناعات تنيس التى اعتمدت على منتجـات زراعيـة فى صناعة السكر وعصر الزيوت وطحن الغلال وعمل الفقاع وربما تركيب بعض العقاقير أو العطور ، وقد جاء ذكر معظم هذه الصناعات فى المراجع العربية الحديثة ، ولم يأت عنها فى المصـادر العربية الا ما ذكره ناصر خسرو عن الفقاع والعقاقير أو العطور •

وعن صناعات السكر وعصر الزيوت وطحن الغـلال تقول المراجع العربية انه كان بتنيس « مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب • ومائة وستة وستون طاحونا » (٦٨٦) ووجود هذا العدد الهائل من المعـاصر والطواحين فى تنيس لا يعنى الا أن هاتين الصناعتين كانتا من بين أنشطتها الصناعية فى العصر الاسلامى ، أما عن صناعتى الفخار وتركيب العقاقير أو العطور فقد أشار اليهما ناصر خسرو فى القرن (٥ هـ /١١ م) حيث قال عن الأولى « ويكثر فى أسواقها (أى أسواق تنيس) شراب الشعير

المطبوخ فى الصيف حيث أن الجو شديد الحرارة » (٦٨٧) وأشار الى الثانية ضمنا فيما ذكره عن المدينة بقوله « ورأيت مائة دكان لا تبيع سوى العقاقير الطبية » (٦٨٨) والغالب على الظن فى هذه الحالة اذا صدقنا هذه الرواية أنها كانت عقاقير تركب من مواد طبيعية من أوراق وبذور وجذور بعض النباتات والأعشاب ، الا أن العرض والتحليل الذى قدم لهذه الرحلة فى تراث الانسانية اختلف فى ترجمته لهذه الفقرة مع ما أثبت هنا ، فبدلا من أن يجعلها « مائة دكان لا تبيع سوى العقاقير الطبية » جعلها « مائة حانوت خصصت لبيع العطور » (٦٨٩) ، ونحن ازاء هاتين الترجمتين المختلفتين لا نملك ما يساعدنا على نفى أو اثبات أى منهما ، وما يمكن قوله فى كلتا الحالتين انه من غير المعقول وجود هذا العدد الهائل من الحوانيت لبيع عقاقير أو عطور تأتيها من خارجها ، وانما المقبول عقلا ومنطقا أن تكون هذه أو تلك من صناعة المدينة ذاتها ، وأنها كانت تنتج بكميات وافرة اقتضت تواجد هذا العدد من الحوانيت لبيعها ٠

٢ ـ تونة :

تكلمت المصادر التاريخية عن موقع جزيرة تونة وعن صناعتها النسيجية كثيرا ، فقال البلاذرى فى القرن (٣ هـ / ٩ م) انها جزيرة قرب تنيس ودمياط بمصر كانت فى الجنوب الشرقى من جزيرة تنيس » (٦٩٠) وأشار اليها الادريسى فى القرن (٦ هـ /١٢ م) بقوله « وبالشرق من تنيس ومع الجنوب قليلا جزيرة تونة وهى فى بحيرة تنيس » (٦٩١) فلم يختلف فى ذلك عما أشار اليه البلاذرى قبله ، الا أنه فى موضع آخر يقول « وتطيف (بحيرة تنيس) بمدن مثل الجزائر هى نبلى وتونة وسمناة ولا طريق الى واحدة منها الا بالسفن » (٦٩٢) والغريب فى الأمر أن نبلى وسمناة هاتين لم يرد لهما ذكر فيما يختص بالصناعات والحرف على الاطلاق رغم ما كان لباقى المدن والقرى والجزر التى جاورت تنيس من شأن فى هذا الصدد ٠

أما ياقوت فى القرن (٧ هـ / ١٣ م) فقد أشار الى أنها « جزيرة قرب تنيس ودمياط من الديار المصرية من فتوح عمرو بن وهب » (٦٩٣) وزاد على باشا مبارك على ذلك فى القرن (١٣ هـ /١٩ م) قوله انه ينسب اليها عمر بن أحمد التونى وأنها قد غرقت ضمن ما أغرقه البحر من تنيس عندما فاض عليها (٦٩٤) ، أما القاموس الجغرافى ووصف مصر فقد ورد فيهما أنها كانت من أعمال تنيس وأن اسمها كان قد تغير الى الشيخ عبد الله نسبة الى ولى أقيم له ضريح فيها (٦٩٥) ٠

هذا فيما يتعلق بتونة كموقع وتاريخ ، أما فيما يتعلق بها كمركز صناعى فان ما لدينا من معلومات تاريخية وردت فى بعض المصادر وكثير من المراجع العربية بالاضافة الى بعض الأدلة الثابتة تؤكد كلها بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الجزيرة كانت مركزا من بين أهم مراكز صناعة النسيج فى مصر الاسلامية منذ القرن (٢ هـ/٨م) وحتى القرن (٥ هـ/١١م) وربما بعد ذلك أيضا ، يدل على ذلك مما ورد عن تونة فى المصادر العربية ما أشار اليه ياقوت فى القرنين (٦ ـ ٧هـ/١٢ ـ ١٣م) حين قال ويضرب المثل بحسن معمول ثيابها وطرزها ، وحين قال نقلا عن محمد بن عمر المطرز البغدادى :

ومعذرين كأن نبت خدودهم ... أشراك ليل فى أديم نهار

يتصيدون قلوبنا بلحاظهم ... كتصيد البازات للأطيار

يا أهل تنيس وتونة قارنوا ... ما بين طرزكم وطرز البارى (٦٩٦)

أما المقريزى فى القرنين (٨ ـ ٩ هـ/١٤ ـ ١٥م) فقد أشار الى أنه من جملة عمل مدينة تنيس قرية يقال لها تونة يعمل بها طراز تنيس ويصنع بها من جملة الطراز كسوة الكعبة أحيانا وأورد فى هذا الصدد ما ذكره الفاكهى عن الكسوة التى عملت فيها سنة (١٩٠هـ /٨٠٥م) على عهد هارون الرشيد (٦٩٧) • ويدل عليه أيضا مما جاء عنها فى المراجع العربية ما ذكره صاحب الكعبة والكسوة نقلا عن المقريزى بقوله « وكانت قرية تونة من أعمال مدينة تنيس مشهورة بما اشتهرت بين مدينة تنيس فكانت الكسوة تصنع بها أيضا » (٦٩٨) وقد يقول قائل أتصنع كسوة الكعبة فى تونة وهى ضاحية تنيس ذات الشهرة التى طبقت الآفاق فى هذا المجال ، والرد على ذلك ينحصر فى أن تجاور المركزين الذى يصل الى حد التلاصق حتى أن الأولى كانت ضاحية للثانية لا بد أنه كان قد أثر الى حد كبير فى مركز الضاحية الصناعى ، كما أن انعزالية الاثنين داخل الجزيرة كانت تجعل من الصعب على أهل الضاحية ممارسة أنشطة تخالف ما كان يمارس فى تنيس ، ومن المعروف أن الكعبة كانت تكسى فى العصر الجاهلى من قباطى مصر ، وكذلك كان الحال فى العصر الاسلامى عندما تولى عمر بن الخطاب وأمر أن تحاك الكسوة فى مصر فاستأثرت مصر بهذا الشرف منذ ذلك الحين حتى ألغى ذلك منذ سنوات قليلة مضت •

وأخيرا يؤكد ما جاء فى المصادر والمراجع عن صناعة النسيج فى جزيرة تونة كثير من الأدلة المادية ممثلة فى كثير من قطع النسيج التى لا زالت محفوظة فى بعض المتاحف والمجموعات الأثرية الخاصة ، وتنحصر هذه الأدلة المادية فى قطعة واحدة باسم هارون الرشيد (١٩٠هـ/٨٠٥م)

(لم يحدد مكان حفظها) عليها كتابة كوفية بسيطة تقول بعد البسملة والدعاء للخليفة « ٠٠ ٠٠ مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونة سنة تسعين ومائة » (٦٩٩) وفى ست قطع فاطمية لا زالت محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة ، ثلاثتها الأولى باسم الحاكم بأمر الله تاريخ أولاها (٣٨٧هـ/٩٩٧ م) وتقول كتابتها بعد البسملة والديباجة الفاطمية المطولة « مما أمر به فى طراز الخاصة بتونة سنة سبع وثمانين وثلثمئة (٧٠٠) ، وتاريخ ثانيتها (٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م) وتقول كتابتها « مما أمر بعمله فى طراز العامة بتونة سنة تسع وثمانين وثلثمئة »(٧٠١) ، وثالثتها بغير تاريخ وتقول كتابتها بعد البسملة والديباجة « بتونة سنة ٠٠ ٠٠ (ولم تحدد (٧٠٢) ، ورابعتها وخامستها بغير أسماء ، تاريخ أولاهما (٣٩٥هـ/١٠٠٤ م) وتقول كتابتها « مما أمر بعمله فى طراز العامة بتونة (سنة) خمس وتسعين وثلثمائة » (٧٠٣) ، وتاريخ ثانيتهما (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) وتقول كتابتها « ٠٠ مما أمر بعمله في طراز الخاصة بتونة سنة ثمان وتسعين وثلثمائة » (٧٠٤) وسادستها باسم صفى أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم على بن أحمد وتاريخها (٤٢٧ هـ/ ١٠٣٤ م) وتقول كتابتها « ٠٠٠ فى طراز العامة بتونة سنة سبع وعشرين وأربعمائة » (٧٠٥) .

كذلك يحتفظ متحف بناكى فى أثينا من منسوجات تونة بقطعتين فاطميتين باسم الحاكم بأمر الله تاريخ أولاهما (٣٨٨هـ/٩٩٨ م) وتقول كتابتها « مما أمر بعمله فى طراز العامة بتونا سنة ثمان وثمانين وثلثمئة » (٧٠٦) ، وتاريخ ثانيتهما (٣٩٠هـ/٩٩٩م) وتقول كتابتها « ٠٠ مما أمر بعمله فى طراز العامة بتونة سنة تسعين وثلثمئة » (٧٠٧) .

والى جانب ما يحتفظ به متحف القاهرة ومتحف بناكى من منسوجات تونة فان هناك قطعا أخرى من منسوجات هذا المركز لازالت محفوظة فى بعض المجموعات الأثرية الخاصة ، من ذلك مثلا مجموعة تانو (Tano) وبها أربع قطع فاطمية أولاها بغير اسم خليفة تاريخها (٣٥٥ هـ/٩٦٥م) وتقول كتابتها « ٠٠ مما أمر بعمله فى طراز العامة بتونة سنة خمس وخمسين وثلثمئة » (٧٠٨) ، وثانيتها باسم العزيز بالله وتاريخها (٣٨٦هـ/٩٩٦م) وتقول كتابتها « ٠٠ مما أمر بعمله فى طراز الخاصة بتونة سنة ست وثمانين وثلثمئة » (٧٠٩) وثالثتها ورابعتها باسم الحاكم بأمر الله تاريخ أولاهما هو نفس تاريخ القطعة الثانية وتقول كتابتها « ٠٠ بعمله فى طراز العامة بتونة سنة ست وثمانين وثلثمئة » (٧١٠) وثانيتهما بغير تاريخ وتقول كتابتها « ٠٠ مما أمر بعمله فى طراز الخاصة بتونة » (٧١١) .

وأخيرا فان هناك ثلاث قطع أخرى من منسوجات تونة أولاها فى مجموعة بارتكيولير (Particulière) وهى باسم المطيع لله وتاريخها (٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م) وتقول كتابتها « .. بعمله فى طراز الخاصة بتونة سنة سبع وخمسين وثلثمئة » (٧١٢) وثانيتها فى مجموعة أبيمايور (Abemayor) وهى باسم العزيز بالله وتاريخها (٣٩٦ هـ/١٠٠٥ م) وتقول كتابتها « .. مما أمر بعمله في طراز العامة بتونة سنة ست وتسعين وثلثمئة » (٧١٣) وثالثتها فى مجموعة ماتوسيان (Matossian) وهى باسم الحاكم بأمر الله وتاريخها (٣٩٧هـ/١٠٠٦م) وتقول كتابتها « .. مما أمر بعمله فى طراز الخاصة بتونة سنة سبع وتسعين وثلثمئة » (٧١٤) .

ومن هذه القطع جميعا يتضح لنا بعض الحقائق الهامة منها أولا أن تونة كانت تشتمل على مصانع الطرازين النسيجيين معا ، وأعنى بذلك طراز الخاصة السلطانية وطراز العامة من الناس . ومنها ثانيا أن هذه المصانع رغم أنها كانت قائمة فى المدينة منذ العصر العباسى سنة (١٩٠هـ/ ٨٠٥ م) الا أنها كانت أكثر نشاطا وأغزر انتاجا فى العصر الفاطمى ، ومنها ثالثا أن منسوجاتها كانت على درجة عالية من الجودة والكفاءة أهلتها لكى تنال جزءا من شرف صناعة الكسوة للكعبة الشريفة ، وهو أمر اقتضى أيضا أن يكون صناعها على نفس القدر من الجودة والكفاءة ، لأنه كان من الضرورى أن يتناسب المنتج مع قدر المنتج له ، وهو الكعبة التى تتبوأ اسمى المراتب فى نفوس المسلمين جميعا .

وأخيرا فاننا لا نستطيع أن نختم حديثنا عن تونة بغير اشارة الى ما ورد في وصف مصر من أنه كان قد عثر فيها على سطح الأرض على رأس تمثال من العقيق المجزع يبلغ طوله (٣٦) مم وعرضه (٢٨) مم ويمثل رأس انسان من منظور جانبى ينطق بتعابير كثيرة منها عين ثاقبة وملمح شجاع وشفاه لا مبالية ، وقد حمل كل هذا أعضاء البعثة الفرنسية التى عثرت عليه على الظن بأنه ربما يمثل رأس أغسطس الذى استطاع أن يقاوم سحر وجمال كيلوباترا وأن يتغلب على كل الصعاب التى كانت تحول بينه وبين السلطة (٧١٥) . ونحن ازاء هذا لا نستطيع أن نجعل وجود هذا التمثال فى المدينة دليلا على أنه صنع فيها كما أننا لا نستطيع فى نفس الوقت اثبات العكس .

٣ ــ الفرمـــا :

لقد ترك لنا المؤرخون العرب معلومات تاريخية وافرة عن الفرما كموقع وتاريـخ ، من ذلك مثلا ما ذكره ابن عبد الحكم فى القرنين

(٢ - ٣ هـ/٨ - ٩م) حين قال ان قبط الفرما كانوا أعوانا لعمرو بن العاص يوم الفتح (٧١٦) ، وما ذكره البلاذرى فى القرن (٣ هـ / ٩م) حين قال بأنها «مدينة قديمة بمصر آثارها باقية» (٧١٧) وما ذكره الكندى فى القرنين (٣ - ٤ هـ /٩ - ١٠م) حين قال ان فيها أكثر العجائب وأقدم الآثار وأنه كان منها طريق الى جزيرة قبرس فى البر فغلب عليه البحر ، وأن هاجر أم اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام كانت من قرية نحو الفرما يقال لها أم العرب (٧١٨) .

كذلك فقد ذكرهــا كل من ابن حوقل والاصــــطخرى فى القرن (٤ هـ/١٠م) بمعلومات تكاد تكون واحدة فيما عدا الاختلاف على أصل جالينوس المدفون بها فقال الأول انها « مدينة صالحة على نحر بحر الروم فى شط بحيرة تنيس وبها قبر جالينوس الرومانى » (٧١٩) وقال الثانى « والفرما على شط البحيرة (يقصد بحيرة تنيس) وهى مدينة صغيرة خصبة وبها قبر جالينوس اليونانى » (٧٢٠) وأشير اليها تعليقا على ما ذكره المسبحى فى القرنين (٤ - ٥ هـ/١٠ - ١١م) فقيل « هى حد مصر من الشمال الشرقى ، وهى من أقدم الرباطات المصرية ، وكانت على عهد قدماء المصريين حصن مصر من جهة الشرق ، وقد اندثرت هذه المدينة الا أن آثارها لا زالت تعرف حتى اليوم بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلو مترات من ساحل البحر المتوسط » (٧٢١) ، وقد وردت هذه المعلومات بالنص أيضـــا فيمـا قيل تعليقـا على ما ذكره ابن ظهيرة فى القرن (١٠ هـ / ١٦ م) (٧٢٢) . كذلك فقد ذكرها ياقوت فى القرنين (٦ - ٧ هـ / ١٢ - ١٣ م)وقال ان « الفرما مدينة قديمة قرب شرقى تنيس على ساحل بحر الروم على يمين القاصد لمصر واسمها أعجمى أحسبه يونانيا » (٧٢٣) .

أما المقريزى فقد أشار اليها فى القرنين (٨ - ٩ هـ/١٤ - ١٥م) حين قال انها مدينة تلقاء مصر سميت باسم آخر أبناء الاسكندر ، وهى قرية أم اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام ، كان المتوكل على الله العباسى قد بنى فيها حصنا على البحر فولى بناءه عنبسة بن اسحاق أمير مصر سنة (٢٣٩هـ /٨٥٣م) عندما بنى حصنى دمياط وتنيس وأنفق فيهما مالا عظيما ، ثم ذكر أنها كانت من فتوح أبرهة بن الصباح حين أنفذه عمرو بن العاص اليها بعد ما تم له فتح عين شمس ، وأوضح بأن الفرنج كانوا نزلوها فى رجب سنة (٥٤٥ هـ/١١٥٠م) وأحرقوها ونهبوا أهلها حتى خربها شاور فى أواخر العصر الفاطمى ، واستمرت المدينة خرابا بعد ذلك لم تعمر (٧٢٤) . وقد وردت هذه المعلومات التى ذكرها المقريزى عن الفرما بالنص ململمة الى جانب ما ذكره كل من البلاذرى وابن حوقل والكندر فيما سجله عنها على باشا مبارك فى القرن (١٣هـ/١٩م) (٧٢٥) .

كذلك فقد ذكر ابن دقماق في القرن (٩هـ/١٥م) أنها « بلدة قديمة بالرمل بالقرب من قطيا والطينة » (٧٢٦) ، ونحن نعرف أن الطينة كانت الميناء الذى أبحر منه ناصر خسرو فى رحلته الى تنيس •

أما صاحب القاموس الجغرافى فقد ذكر أن اسمها المصرى القديم « بر آمن » أى مدينة الاله آمون ومنها نقل اسمها القبطى « برما » ومن هذا أتى الاسم العربى « فرما » الذى أضيفت اليه بعد ذلك أداة التعريف فقيل الفرما » (٧٢٧) ، والواقع أن المدينة قد تلاشت من الوجود تماما ، ولكن موقعها لا يزال يعرف فى مكانه حتى اليوم بتل الفرما على بعد ثلاثة كيلو مترات من شاطىء البحر المتوسط •

هذا عن الفرما كموقع وتاريخ أما فيما يتعلق بها كمركز صناعى فقد أمدتنا المصادر والمراجع العربية بمعلومات كافية فى هذا الصدد تثبت أن المدينة كانت فى العصر الاســـلامى مركزا لصناعات النسيج والتمور والحصير والقفف والحبال وربما أيضا استخراج زيت الحيتان وسنتحدث فيما يلى بالتفصيل عن كل واحدة من هذه الصناعات •

١ ـ صناعة النسيج :

لا شك أن مالدينا من مادة تاريخية أوردتها بعض المصادر العربية عن صناعة النسيج فى الفرما يثبت أن هذه الصناعة كانت تمارس فى المدينة منذ العصر البيزنطى ، وأنها ظلت تمارس فيها بعد ذلك فى العصر الاسلامى منذ بواكيره حتى نهاية العصر الفاطمى ، يدل على ذلك ما ذكره المقدسى فى القرن (٤ هـ /١٠ م) بقوله « ومن الفرما القباطى والخمر والفرش والستور وغزل الصوف والكتان والخيش » (٧٢٨) وفى هذا ما يتفق وما ذكره ابن عبد الحكم فى القرنين (٢ ـ ٣ هـ/٨ ـ ٩م) فيما سبقت الاشارة اليه من أن قبط الفرما كانوا عونا لعمرو بن العاص يوم الفتح ، لأن معنى ما ذكره ابن عبد الحكم أن هذه المدينة كانت مقرا للأقباط ، ونحن نعرف ما كان لهؤلاء من فضل على صناعة النسيج المصرية ولا سيما فى العصور الاسلامية المبكرة ، لأننا لو استرجعنا من التاريخ أن « القباطى » كانت منسوجات ابتكرها الأقباط فنسبت اليهم ، وأضفنا اليه أن اسم المدينة ذاتها كان قد تحول فى العصر الاسلامى الى « فرما » من القبطية « برما » أو « برآمن » ، وأن الفرما كانت واحدة من المدن التى جاورت كثيرا من مراكز الصناعة العريقة فى ذات المجال كتنيس وشطا ، وأن المواد الخام اللازمة لها كانت سهلة المنال لكثرة مزارع الكتان فى الاقليم ، أمكننا القول أن ما ذكره المقدسى كان حقيقة لا جدال فيها •

ويبدو أن صناعة النسيج كانت قد ظلت تمارس فى المدينة حتى القرن (١٠ هـ/١٦م) بدليل ما ذكره ابن ظهيرة ضمن صناعاتها وحرفها بقوله « ومن الفرما الكتان » (٧٢٩) وهو ما يعنى ضمنا أن منسوجات كتانية كانت تصنع فى المدينة حتى عصره ، يدل على ذلك أيضا ما أوردته بعض المراجع العربية الحديثة من أن القطن والكتان كانا ينسجان خلال عصرى الاخشيديين والفاطميين فى كثير من مراكز صناعة النسيج ، ولا سيما بالدلتا فى تنيس وشطا ودبيق ودمياط فضلا عن الفرما (٧٣٠) .

٢ ـ صناعات تعتمد على منتجات زراعية :

انحصرت صناعات الفرما التى اعتمدت على منتجات زراعية كما قلنا فى صناعة التمور والحصير والقفف والحبال وربما استخراج زيت الحيتان أيضا ، ويفهم مما أشار اليه المؤرخون العرب فيما يتعلق بصناعة التمور فى الفرما أن هذه الصناعة كانت تمارس فى المدينة منذ القرن (٣ هـ/ ٩م) ، وظلت تمارس فيها حتى القرن (١٠ هـ/١٦م) تقريبا ، يدل على ذلك ما ذكره الكندى فى القرنين (٣ ـ ٤ هـ /٩ ـ ١٠م) بقوله « وبالفرما نخلها العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيا » (٧٣١) ، ويدل عليه أيضا ما ذكره ابن حوقل فى القرن (٤ هـ / ١٠م) من أن « الفرما كثيرة النخل والرطب » (٧٣٢) ، وما ذكره ابن ظهيرة فى القرن (١٠ هـ /١٦م) من أن « بها البسر (وهو التمر قبل أن يرطب) الفرماوى والرطب والتمر » (٧٣٣) .

أما صناعة الحصير فقد جاء ذكرها فيما رواه المقدسى فى القرن (٤ هـ /١٠ م) حين قال « ومن الفرما الحصر العبادانى » (٧٣٤) ، وما ذكره ابن ظهيرة فى القرن (١٠هـ/١٦م) حين قال « وبها الحصر السامانى والعبدانى » (٧٣٥) ، وهذا معناه أن الصناعة التى بين أيدينا ـ رغم اختلاف المصدرين فى تسمية نوعى انتاجها ـ كانت تمارس فى المدينة منذ القرن (٤هـ/١٠م) وحتى القرن (١٠هـ/١٦م) .

وأخيرا فقد ذكر المقدسى فى القرن (٤هـ/١٠م) أن « من الفرما القفاف والحبال من الليف فى غاية الجودة ومنها الحيتان والقند والاشنان والهريسة والنيدة » (٧٣٦) ، وفى هذا ما يعنى أن استخراج زيت الحوت وعمل أنواع الحلوى المشار اليها كان من بين حرف المدينة خلال هذه الفترة .

ثالثا : محافظة الدقهلية

ان ما لدينا من معلومات تاريخية وردت فى كثير من المصادر والمراجع العربية ، وما بين أيدينا من أدلة مادية ممثلة فى بقايا أثرية لا زالت محفوظة